حَلاْل المُشْبُوك

أحمد سليمان أبكر

روايـة

اسم الكتاب: حلال المشبوك

المؤلف: أحمد سليمان أبكر

التصنيف الأدبي:رو اية

عدد الصفحات:28

الأخراج الفني والتنسيق:هديل أبوجاموس

تصميم الغلاف:أحمد سليمان أبكر

الناشر: دار التميز الثقافية للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2026

الرقم الدولي(EBIN) :63-130-130-260102

جميع الحقوق محفوظة © دار التميز الثقافية للنشر الإلكتروني

لا يجوز إعادة طبع هذا الكتاب أو نشره أو نقله أو تخزينه بأي وسيلة كانت دون إذن خطي من الناشر.

كل الحقوق محفوظة للمؤلف ودار التميز الثقافية للنشر الإلكتروني.

البريد الإلكتروني للدار ✉ :hdylabwjamws473@gmail.com

و اتساب دار التميز الثقافية :00962780252577

نُبْذَةٌ عَنِ رِوَايَة"حلال المشبوك

زاهد ورع، حكيم لبق، وافر المعرفة، سريع الخاطر، خفيف الظل مرح لا تفارق الابتسامة وجهه، في ملامحه هدوء، وشموخ، وفي خطاه إتزان، كلامه إيماء، وملاحظاته إشارات. لقد تميز بقوة حجته في محاربة البدع والخرفات التي ظهرت وانتشرت بين العامة والخاصة، بل وطالت حتى مجالس الأمراء والسلاطين. برع بحنكته في إخراج الناس من مآزق الأيام، لقبوه بـ(حلال المشبوك). يحمـــل فـوق كاهله ثمانين عامًا وكأنها هي التي تحمله في

رشاقة الخالدين، فرغ من العمل في مزرعته، تربّع تحت سدرته، مودعًا ضحوته، ومستقبلًا قيلولته.

"حلال المشبوك"

"أحمد سليمان أبكر"

رواية

الفهرس:

إهداء 6

حلال المشبوك 7

الشاك مشكاك 13

رسائل الشيخ 18

رحيل مهيب 23

السيرة الذاتية.....26

إهداء

إلى روح الشيخ فرح ود تكتوتك، وإلى أوراح غيره من الأسلاف الذين خلّفوا من وارئهم تراث تليد يرويه الأجيال جيل بعد جيل، فسلام عليهم في الخالدين الذين أسكنهم ربهم جنات النعيم، وإلى كل محبي التراث وحكاويه.

حلال المشبوك

زاهد ورع، حكيم لبق، وافر المعرفة، سريع الخاطر، خفيف الظل مرح لا تفارق الابتسامة وجهه، في ملامحه هدوء، وشموخ، وفي خطاه إتزان، كلامه إيماء، وملاحظاته إشارات. إذا اختصم اثنان أو اختلفا على أمر بينهما كان هو الحكم، وإذا أصاب أحدهم مكروه سارع إليه مواسيًا ومذكّرًا بالصبر، حتى تنير التعزية وجهه المصفر، مثلما تنير أشعة الغروب اللطيفة خلايا الغيوم، ويقول الشيخ في ذلك:

الصبر عز والبكاء مذلة إلا لخمس ذنبهم مغفور

مثل المشاعل والكواكب في الدجا فيه شموس في الأنام تدور

العالم المحي البلاد بعلمه كالنيل أو كالموضع الممطور
والحاكم العدل المقيم على الوفا لا يفتري في حكمه ويجور
والباذل البطل المغير على العدا يشفي الغليل ويجبر المكسور
ثم الكريم جزاء ألف كرامة يأوي إليه الضايق المضرور

لقد تميز بقوة حجته في محاربة البدع والخرفات التي ظهرت وانتشرت بين العامة والخاصة، بل وطالت حتى مجالس الأمراء والسلاطين. برع بحنكته في إخراج الناس من مآزق الأيام، لقبوه بـ(حلال المشبوك).

يحمل فوق كاهله ثمانين عامًا وكأنها هي التي تحمله في

رشاقة الخالدين، فرغ من العمل في مزرعته، تربّع تحت سدرته، مودعًا ضحوته، ومستقبلًا قيلولته.

الشمس تتسلق قبة السماء، الطريق المتعرج تنطبع عليه خطواته المتسارعة، أصوات الغربان العائدة إلى أعشاشها وقت الظهيرة تلهب أذنيه بأصوات تترسب في أعماق اللاشعور. يجهد عينيه ويحدق، المرئيات تتشابك فيها الظلال؛ فتبدو باهتة بلا لون، قرص الشمس الجائع يلتهم الرمل والأحداق، قطرات العرق السائلة تحفر طرقًا في جسده، يعاوده أمل ضامر في أن يصل نهاية رحلة هذا الكابوس الذي يطارده.

أقبل على الشيخ، والخوف يعبث به عبث النَّكباء بالعود، وقد بدت ثيابه الممزقة فوق جسمه كآثار السياط فوق أجسام المستعبدين في عهود الاستبداد. وقف الشيخ أمامه بقامته المربوعة، ولحيته البيضاء المسترسلة، وهو يرتدي قفطانًا من

الدمور، وينبعث من وجهه الوسيم المتغضن، نور الصلاح والطمأنينة والتقوى، وتتساقط بين أصابعه المنشرحة حبات سبحة من اللالوب.

ووقف هـو الآخر أمام الشيخ، وقد بدت عيناه حمراوين

مثل كأسين من دم، حاول أن يفتح فاه ليقول شيئًا لكنه لم يستطع النطق. أخذت شفتاها ترجفان، ظهرت على جانبيهما رغوة. أخذ نفسًا طويلًا كأنه عطشان إلى الهواء، تهاوى على الأرض، غاب لحظة عن وعيه، عاد ونظر حواليه، همس مضطربًا:

لا أريد أن أموت.

رأى الشيخ في عيني الشاب أشجانه فأهمه ما رأى، فاستدناه إليه وربَّت عليه بحنان،وقال له:
لا تخف يا بني..ستكون بخير إن شاء الله!

ظل الشاب على حـاله مدة من الزمن، فتح عينيه، جال

بنظراته هنا وهناك؛ وقد بدا كأنه عائد من عالم آخر، اعتدل جالسًا، وقبل أن ينبس ببنت شفة، قدم له الشيخ قدحًا من الماء المخلوط بدقيق الذرة وقال له:

أشرب يا بني حتى يسكن عطشك، فأنت تبدو متعبًا جدًا.

شـرب الشاب قلليلًا؛ ثم قال للشيخ معتذرًا وفي صوته

رجفة:

عفوًا يا شيخنا.. إني خائف..أريد منك أن تخبئني

سأله الشيخ:

ولماذا تريد الاختباء؟

الشاب:

هنالك قوم يتربصون بي شرًا، وأنني ما زالت أجري على غير هدًى منذ الصباح الباكر؛ لا أعرف لي مذهبًا ولا مضطرَبًا حتى أوى إليه..فهل لك أن تحسن إليّ وتخبئني

حتى لا يبطشون بي.

نظر الشيخ إليه نظرةً هادئة ساكنةً، ثم أشار عليه بأن

يختبىء فى كوم من القصب كان على مقربة منهما، ففعل الشاب.
جاء المتربصون والغيظ يثور في نفوسهم، مثل غربان جائعة في أقفاص ضيقة، ترتجف غضبًا ومناقيرها تصرف بشدة
مترقبة وقوع طريدها في يدها لتمزقه تمزيقًا وتسحقه سحقًا.
سألوا الشيخ إن كان هنالك شابًا هاربًا مر به، فأشار الشيخ

إلى كوم القصب قائلًا:

إنه هنا في هذا الكوم.

لم يصدقوه وظنوا أنه يسخر منهم، فتركوه ومضوا في حال

سبيلهم وبعد أن ذهبوا خرج الشاب من كوم القصب وقد سقط قلبه في ضلوعه، وجمد الدم في عروقه من شدة الهلع، وهو يقول متلعثمًا:

كيف تدلهم يا شيخنا على مكانى وأنا الذي استجرت بك

فقال له الشيخ مبتسمًا:

يا بني إن لم ينجيك الصدق فالكذب ليس بمنجيك.

هبط الظلام شيئًا فشيئًا، طاردت طلائعه فلول النور، طوى الليل أول طية في ردائه، الهواء منعش لين القبضة، النجوم تزين قبة السماء، القمر طالع لتوه وقد غمر بنوره الروابي والشواطئ فظهرت عاصمة الأمير على أكتاف بحر أزرق (النيل الأزرق) كأنها قد ابنعثت من اللاشيء، وبان قصره من تحت هذه الأشعة الفضية كأنه فتى متكئ على ساعده تحت نقاب لطيف يخفي أعضاءه ولا يخفيها.
في هذه الساعة المملوءة بسحر الهدوء وهيبة المكان جلس

الأمير في بهو قصره يتلذذ بأنواع المشروبات المتعقة مع ندمائه ويتجاذب معهم أطراف الحديث عن الفقرا (الشيوخ) وكراماتهم، هذا يطير في الهواء وذاك يمشي على وجه الماء وثالث يحيل بالإكسير النحاس ذهبًا، وغير ذلك

مما هو شائع من بدع وخرفات.

ظل القوم يخوضون على غير هدى منهم في ذلك العالم الغريب، حتى سبح الإغراء في أعماق الأمير فنفث ما به قائلًا:

إذن إن كان أمر كما تقولون، فيمكن للفقرا (للمشايخ) أن يعلموا بعيري الذي أُهدي إلي مؤخرًا القراءة والكتابة!

صمت القوم برهةً، ثم نطقوا بصوت واحد:

بالتأكيد يستطيعون.. يا مولاي.

أمر الأمير بحضور الفقرا (المشايخ) في الصباح الباكر، ولما

مثلوا بين يديه أخبرهم المقدم (الحاجب) بطلبه، قائلًا:

هاي يا الفقرا ..يا أهل الدايرة ..أبان (أصحاب) وجوها

نايرة..يا البتعرفوا الراكة والطايرة..طلب الأمير منكم مو

كثير ولا هو كبير..فقط تعليم البعير..

والبعير يا أهل الدايرة..أصهب ود أصهب وأمه حرة بشارية وهو ود (مية) يعني بالصريح الفصيح البعير ابن ريح (أي بعير أكمل تمام المائة، وفي زعمهم أنه ابن ريح أي ابن جان، وهو نادر المثال).

وقع الطلب على الفقرا (المشايخ) كالصاعقة، فخرست ألسنتهم وجمّدت أجسادهم كالتماثيل، وبعد أن دبت الحياة في أوصالهم، وفاقوا من سباتهم،

قال أحدهم متلعثمًا:

أدام الله مجد أمير المؤمنين، وناصر الحق والدين ومبدد

شمل المخالفين، نطلب منكم ملهة مقدارها ويومين.

فهمس المقدم (الحاجب) في أذن الأمير، ثم رفع رأسه

مخاطبًا الفقرا (المشايخ):

أدام الله عز حامي سنار، وقاهر الأعداء الفجار، قبل عذركم ليومين فلا يكون بعدهن عذر ولا تأخير ..أشربوا القهوة وأعطونا الفاتحة.

استولى على الفقرا (المشايخ) فزع غير مألوف، فزع أقرب إلى تبخر الذهن وتطاير العقل، خرجوا من قصر الأمير وهم يتلاومون ويتحاجون من الذي رماهم في هذه الورطة؟ صاح بهم فقير حاضر البديهة قائلًا:

دعكم من الذي أوقعكم في الورطة، وفكروا في من يخرجكم منها، وفي ظني لا يخرجنكم منها إلا الشيخ (فرح ود تكتوك حلال المشبوك).

فأمنوا جميعًا على قوله.

غابت الشمس، خيم الظلام، بدأت العتمة تطغى على كل شيء، انطلق رهط منهم، يطلب (المركب) وقد عزموا أن

يبيتوا ليلتهم في قرية الشيخ بالضفة الشرقية لبحر أزرق (للنيل الأزرق). أبحر بهم المركب، وهم مستغرقين فى هواجسهم، ينظرون إلى النيل وهو يبدو كالفضة اللامعة من تكسر نور القمر على سطحه، ولولا ما يتخلل بياضه من التموج والارتعاش؛ لم يشكون أنه مرآة صافية تعكس ملامح

وجوهم المضطربة.

جلس الشيخ على فروته أمام كوخه المطل على مجرى بحر أزرق (النيل الأزرق) إلى مسافة غير بعيدة، وقد سكنت الطبيعة وهدأ النسيم ألا ما يعبث منه بأوراق الأشجار.
أقبل عليه الرهط، ألقوا عليه التحية، ردّ بأحسن منها، لم يعطوه فرصة ليسألهم عن سبب حضورهم، فحكى له أفصحهم وأدقهم تعبيرًا قصتهم مع الأمير من أولها إلى آخرها، والبقية يؤمنون ويحوقلون!
قال لهم الشيخ مبتسمًا:

لا تقلقوا..الأمر في غاية البساطة والسهولة..سأقوم بهذه المهمة نيابة عنكم.

مع أول خيوط صباح اليوم التالي تجمهر الفقرا (المشايخ) أمام القصر وحولهم حشد من الأتباع بجببهم وأباريقهم

ومسابحهم، نادى مناد:

أدخلوا يا فقرا..

ولما أخذوا مجلسهم دخل عليهم الأمير، حيّاهم، ردوا عليه التحية بأحسن منها.

بادرهم المقدم (الحاجب):

إن شاء الله يا فقرا رجعتم بالأمر الذي يسر الأمير.

الفقرا (المشايخ) بصوت واحد:

نعم أتينا بفرح ود تكتوتك.

المقدم (الحاجب):

فرح شن معناه فقير الترابلة (المزراعون) والرعاوية (الرعاة)؟! دا أمرًا صعب يا فقرا فكروا سمح

الفقرا (المشايخ): فرح مأمون يا حاجب على البعير ما عندنا أي شك في ذلك.

وقف الشيخ، خاطب المقدم (الحاجب) قائلًا:

أنا مسئول عن أمر هذا البعير أمام مشايخي الفقرا وأمام الأمير، فالطالب عندنا نعلهم الكتابة والقراءة في أربع سنوات وها البعير نعلمه القراءة والكتابة أيضًا في أربع سنوات.

المقدم (الحاجب):

وإن لم يتعلم يا شيخ؟

الشيخ:

يفعل الأمير ما يراه بالفقير.

همس المقدم (الحاجب) في أذن الأمير، ورفع رأسه قائلًا:

قبل طويل العمر شروطك يا الشيخ..

ثم قام مع الشيخ وحولهما الفقرا (الشيوخ) والجند وسلمه البعير ومعه مراح البقر وبضعة شوالات من التمر وعدد من الخدم. خرج الشيخ من القصر مشيعًا بعبارات الشامتين، ونظرات المشفقين، وصل قريته في البر الشرقي لبحر أزرق (للنيل الأزرق).

بعد أيام ذهب إليه جماعة من الفقرا (المشايخ) وقد بدا على وجوههم الذهول وهم يسألونه:

أجد ما فعلته أم هزل يا شيخ؟

تبسم الشيخ، وطمأنهم قائلًا:

تعليم البعير يحتاج لأربع سنوات، وإن شاء الله سوف لن تمضي هذه السنوات الأربع دون ينفذ القدر في الأمير، أو البعير، أو الفقير.

ولم يمض سوى عام واحد حتى مات الأمير ولحق به البعير وعاش الفقير من بعد ذلك عقدين من الزمان أو يزيد.

الشاك مشكاك

اشتهرت طائفة (الزبالعة) بفنون السحر وغرائب الأشياء كأن رأت امرأة من بعلها نفورًا لجأت إلى أحدهم، وبسطت له وقائع المسألة ونفحته بشيء من المال وهنالك، يعمل لها سحرًا يجعل من الرجل دمية صماء في يدها تحركه كيف شاءت ولا يعصي لها أمرًا، وكذلك من أعمال الزبالعة إذا خافوا بطش تمساحٍ في النيل صنعوا له تمثالًا من الطين ثم نفثوا سحرًا على خيط وربطوا به فك التمثال، ومن ثم وضعوه بحافة النيل ونزلوا إلى الماء حالة كون التماسيح تظهر وتختفي حولهم فلا تستطيع الدنو منهم ولا من ماشيتهم؛ ما لم يُكسر التمثال،ومن غرائبهم أيضًا إذا عادت الأبقار من المرعى وهمت العجول إلى لقائها رسموا خطًا على الأرض بين الأبقار والعجول فلا تستطيع بقرة بأن تجوز من فوق ذلك الخط إلى صغيرها حتى تُحلب

ويُطمس ذلك الخط من الأرض.

بلغ الشيخ خرفات وأباطيل هؤلاء الزبالعة، فتصدى لهم وعارضهم بشدة، أخذوا يسخرون منه ولو في سرهم، كطريقة لمعالجة التفرقة الدينية والفكرية، يسخرون منه وهم لا يعرفون عنه غير حسن خلقه وطيب معشره، ثم لم يلبثوا أن غرقوا في الآثام، وحاملي الآثام جبناء معلقون في هوائها وغائصون في ظلامها.

سبح في الظلام صرير، فرنا الشيخ إلى باب الكوخ، رأي هيكله وهو ينفتح بنعومة وثبات، ومنه قدم شبح لحوار من حيران شيخ الزبالعة كقطعة متجسدة من أنفاس الليل، مال نحوه وهمس:

استعد للمناظرة..يا فقير، غدًا سيخرج شيخنا من خلوته، ويشق البلدة بنوره وسيهزمك شر هزيمة أمام الجميع.

قبض على أهداب الرؤية، فغاضت قبضته في أمواج الظلام، انتفض ناهضًا ثملًا بالإلهام والقدرة، فقال له قلبه لا تحزن، فمثلك منصور بإذن الله ما دام يخوض الحياة ببراءة الأطفال وصفاء الملائكة.

ذهب الشيخ إلى ساحة المناظرة، الناس يزدحمون في كثافة هائلة في شكل دائرة وسطها ثلاث دكاك خشبية، غابت الشمس في ناحية، تهادى القمر صاعدًا من الناحية المقابلة صافيًا عذبًا، وهو يصعد مرسلًا ضوءه الفضي على أجساد الزبالعة

الذين ضاقت بهم الساحة وهم باسطي أذرعهم يدعون لشيخهم بالنصر، مر وقت غير قصير في صمت خاشع حتى استقر القمر في كبد السماء، عند ذلك ند صوت منذر طويل عن بوق في شمال الساحة، فانشق طريق في جنوب الدائرة موسعًا لقادم وقور، يشع النور من غرة جبينه، وتقطر صفحته بهاء وسماحةً وإيمانًا، إنه الشيخ المضوي الذي يدير المناظرة، سار محييًا الحضور، وعلى شفتيه ابتسامة تشي بحبه للناس، ولما انتهي إلى الدكاك اختار مجلسه في الدكة الوسطى بعد أن حي الشيخ (ود تكتوك) الذي سبقه إلى الساحة وجلس في الدكة اليمنى، وما أن استقر الشيخ المضوي في دكته حتى ند صوت البوق مرة أخرى، فانشق طريق في شمال الدائرة هذه المرة موسعًا لقادم طويل القامة، مرسل اللحية، منفوش الشعر،تقدم متوكئًا على عصا طويلة حتى وقف في مركز الدائرة، تركزت الأعين على شيخ الزيالعة (ود عبد الله)، وإزداد الصمت صمتًا، ولبث هو فترة جامدًا، ثم ترك عصاه تسقط عند قدميه ورفع رأسه وذراعيه نحو السماء فتبعته الألوف من أذرع أنصاره، فصفق بيديه، فانطلق من حناجرهم إنشاد واحد في لحظة واحدة، انطلق بقوة وشمول، فكأن الأرض والسماء وما بينهما شاركت فيه منتشية بسكر الإنشاد ووجد المريدين، وانسربت إلى أعماقهم نغمة مفعمة بالحرارة، مميزة بالوحشية والخشونة، مجللة بالدوي والأصداء، وقد جاشت في صدور غيرهم بانفعالات ترتعش باللذة والرهبة، وتصاعدت لذروة الانفجار، ثم أخذت في الهبوط الوئيد، خطوة إثر خطوة، حتى استنامت للهدوء، وغاصت في الصمت، وأنزل الشيخ الزبالعي ذراعيه ونظر فيما أمامه فتبعته أذرع مريديه، وقد تحولت إليه أعينهم، وهو يلتقط عصاه، ليجلس في دكته اليسرى، وهو ثقيل النظرة، متشحًا بالغرابة والأنفة.

فتح الشيخ المضوي الجلسة بقوله:

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله،وبعد فإننا نجتمع هنا لنستمع لحديث الأخوين (ود تكتوك) و (ود عبد الله)، وأرجو أن يكون الحديث بالصدق والأمانة.

فالاتهام الموجه للشيخ (ود تكتوك) أنه طالب دنيا، ولم يهتم بأمر الدين لأنه يزرع ويحصد بيده ويعمل في كل المواسم بلا انقطاع، أما الاتهام الموجه للشيخ (ود عبد الله) فهو فساد العقيدة والاشتغال بالسحر والطلاسم.

الشيخ ود عبد الله:

بسم الله والحمد لله، درج الشيخ (ود تكتوك) على سبنا والتعريض بنا وهذا من باب الغيبة والنميمة.

الشيخ ود تكتوك:

بسم الله والحمد لله والصلاة على رسول الله، يعلم ربنا الوهاب، أني لم أبدأ السباب، ولا يعرف طبعي النميمة والاغتياب ولم أقل عنكم إلا الصواب، لأنكم مخالفون للسنة والكتاب.

الشيخ ود عبد الله:

نحن لم نخالف السنة والكتاب يا فقير الله، فنحن نصلي

الشيخ ود تكتوك:

أريت صلاتكم ما صلاتي، المتروكة لبرد الشاتي

الشيخ ود عبد الله:

اتقي الله يا عبد الله، ما سمعت بي زكاتنا

الشيخ ود تكتوك:

أريت زكاتكم ما زكاتي ما تدوها إلا السمين العاتي

الشيخ ود عبد الله:

قصّر حديثك يا طالب الدنيا، يا رفيق الزرّاع

الشيخ ود تكتوك:

أريت رفاقتي رفاقة السرور، أبّان (أصحاب)

عملًا مبرور أبّان (أصحاب) سعيًا مشكور، انتو في كبي وسوي الفطور،، وهم حرتو المسور(الزرع).

تصايح الزبالعة بالشيخ ود تكتوك بعد تحرّج موقف شيخهم، وانفضّت المناظرة على ضوضائهم والشيخ ود تكتوك يبتسم قائلًا:

الشاك فيه مشكاك

الشاك فيه مشكاك

(أي الشاكي غير واثق من نفسه)

بعد هذه المناظرة التي كشفت هوانهم وضعف أفكارهم أطلقوا الأذية

والحقد الأعمى على اليأس الزاحف تجاه الشيخ (ود تكتوك)، وهم يمنون أنفسهم بأن تنقذهم معجزة من سطوته وإرادته الحديدية، حتى ينقلب الوضع إلى صالحهم وإلى

الأبد.

الوقت ضحى، فرغ الشيخ من بناء كوخٍ له من القش، مر به جماعة منهم، صاحوا به واستفزوه، ولما لم يلتفت إليهم، مالوا نحو الكوخ الجديد وأخذوا يشلّعونه (يهدمونه) فانضم إليهم الشيخ وشرع يخرب معهم ويردد قائلًا:

(خربانة أم بنايا قش)

أي إنها الدنيا دار الزوال.

جاء الصيف زافرًا أنفاسه الحارة، استعذب الشيخ قضاء قيلولته عند حافة النيل، جماعة من الزبالعة قادمون، أعينهم تترامق تحت أشعة شمس محرقة وتتلقى من لظى الرمال جحيمًا، انجذبت أنظارهم نحوه وهو متمدد على سريره تحت ظل شجرته الوارفة بقامته الرشيقة المائلة للطول، ناوشوه فلم يجاريهم، فمالوا إليه وحملوه بسرير وهمّوا بالقائه في النيل، فتعثروا وغاصت أقدامهم في رمال الشاطئ، خافوا؛ أخذوا يرددون اسم شيخهم مستغيثين به، اتلفت إليهم الشيخ وقال لهم:

أبّان (أصحاب) طريقة مضله

أبّان(أصحاب) عملًا ما هو لى الله

وكت العنقريب فوقكم انبله

ما بنفعكم شيخكم ود عبد الله

الشمس زالت عن كبد السماء، الشيخ جالس فوق فروته تحت شجرة مقيله في وسط مزرعته، مر به أحد الزبالعة؛ التف حوله كأنه يتقفى خيوطًا مشبوكة، أخذ يصيح به، أدار الشيخ إليه وجهه بهدوء دون أن ينبس بكلمة، ثم أعاد وجهه إلى الموضوع الأول مستمر في فتله لحبل بيده، وغير مكترث بما يحمله إليه هذا الزبالعي من وسط تنفسه الهائج، اغتاظ الأخير وهو يحرك ذراعيه فعل الغاضب المحموم، ثم لم يلبث أن رمى

الشيخ بنجاسة في جرّة صغيرة كانت بيده، فسالت النجاسة على ثياب الشيخ الذي ظل هادئًا كأن لم يمس بأذى، ثم رفع رأسه باسمًا، وقد أثلج صدره برد الحلم وقال لمهاجمه:

جزاك الله خيرًا يا ولدي، لقد كنت شاكًا في طهارة ملابسي، ودا الحين قطعت لي الشك، فنزل النيل واغتسل.

ظل الشيخ (ود تكتوك) يؤكد أنه لا يقول إلا ما يعتقد، ولا يعتقد إلا ما يسمع صداه من جوانب نفسه، فربما خالف الشيوخ أو بعضهم في أشياء يعلمون منها غير ما يعلم، ومعذرته إليهم في ذلك أنَّ الحق أولى بالمجاملة منهم، وأنَّ في رأسه عقلًا يجلُّه عن أن ينزل به إلى أن يكون سيِّقة للعقول، وريشةً في مهابِّ الأغراض والأهواء، ولا بأس عنده أن يؤيد الإنسان مذهبه بالحجة والبرهان، لا بالشتم والسباب الذي يدل على عجز صاحبه وجهله.

رسائل الشيخ

شاب هادئ؛ أخص ما يوصف به الهدوء المطلق، ولعله ذاك ما حبب إليه الجمود والكسل، وزهده في الناس والنشاط، ولذلك عدل عن الذهاب إلى الحقل، وأبى أن يعمل مكتفيًا بدخل لا بأس به من إيجار أرضه التي ورثها عن والديه، ولذته الكبرى أن يطمئن إلى مجلس منعزل على صخرة في حافة النيل، يشبك راحتيه على ركبيته، يلبث ساعات متتابعات جامدًا صامتًا، يشاهد الرائحين والغادين من وإلى الحقول بطرف ناعس وجفنين ثقيلين، لا يمل ولا يتعب، فعلى صخرته حياته ولذته، وما زال كذلك حتى شعر ذات ليلة بما يشعر به النائم أن ثمة سر مغلق شده إلى حافته، وغاص به في ظلماته، وضرم النار في صدره ولم يلفته منه إلا شيخ وقور جلس بجانبه وأخذ ينوّر عقله وروحه ويبدد الظلام من حوله، وقد وجه أشواقه إلى أنبل

ما في الحياة.

في صباح اليوم الثاني لم يكن أفاق من آثار الحلم بعد، ولم يعد يتذوق هدوءه الكثيف الذي عاش في إهابه دهرًا طويلًا قانعًا مطمئنًا، كيف له بالهدوء وآثار الحلم تضطرم في نفسه على رغمه؟ مضى إلى صخرته واطمأن إليها كعادته، بيد أنه لم يستطع هذه المرة أن يشبك راحيته حول ركبيته ويستسلم لسكونه المعهود، لم تطاوعه نفسه، فقد فقدت قدرتها على الجمود، أو برئت من عجزعها عن الحركة فنبا به مجلسه، وما أن هم بالنهوض، حتى رأي شيخًا غير غريب عن ناظريه ولما تبيّنه جيدًا تيقن أنه الشيخ الذي رآه في الحلم، عندها أهاب به شعور قوي بأن يزور هذا الشيخ في بيته.

الشيخ فرح ود تكتوك (حلال المشبوك) ينطق بالحكمة وصاحب دراية ومعرفة بدخائل من يعاشرهم ومن يوجههم، تربع أمام كوخه بعد فراغه من فريضة المغرب، مستقبلًا العشاء، ومتنظرًا إنسياب الأذكار ونسمة من نسائم الشتاء معطرة بالبرد وعبق الزروع تنزلق من فوق الأشجار العتيقة التي تحيط بداره، تشد بذيلها أنفاس الليل وما أجدر الليل بالعبادة ففيه يجلس في محرابه، ويناجي ربه وهو متخم بالسكينة والبركات. ثمة همسة في باطنه جعلته يحول عينيه نحو مدخل الدار فرأى شابًا يدخل عليه في تكاسل، لم يستطع أن يسترد عينيه، عرفه في بقية ضوء المغيب، أقبل الشاب نحوه حتى وقف يديه، وبدأه بالتحية، فنظر إليه الشيخ وقد تلألأ وجهه

بذلك النور الساطع الذي يتلألأ دائمًا في وجوه الأتقياء، نور البساطة والطهارة، والنبل والشرف، ثم رد تحيته ردًّا جميلًا، وكأنما شعر له بمثل الذي شعر له به من العطف والود، ثم أشار عليه بالجلوس إلى جانبه، فجلس الشاب بكل تأدب واحترام وهو مطأطأ الرأس، نظر إليه الشيخ وسأله عم به؟

أخفى الشاب عينيه في الأرض، ووضع يده على جبينه كأنما يفتش في طياته عن بعض الذكريات القديمة، أو يستجمع ما تفرق من شواردها وقبل أن ينبس بكلمة، سأله الشيخ:

هل أديت فريضة المغرب؟

فهز الشاب رأسه بالنفي ورسمت شفتاه حرف (لا) دون أن تنطق به

الشيخ:

لماذا؟

صمت الشاب دون جواب وقد بدا كأنه في غيبوبة، وعيناه مثبتتين على بقعة ضوء القمر التي بين يديه دون أن تريا شيئًا، وكأن تلك البقعة قد انطبعت بإدامة النظر على صفحة عقله فاستحال شتيتًا من الفوضى والخواء، وكلما مرت ثانية أمعن في الصمت، ولم يبق له إلا أن يلوذ بهذه المقاومة السلبية البائسة، ولكن ما أن نظر إليه الشيخ نظرة شفقة وعطف حتى سالت دموعه تنفيسًا وترويحًا عن الصراع الناشب في صدره، وقد اعتراه الخجل لما ركبه من حرج بيد أنه وسعه أخيرًا أن يتكلم لشدة تأثره من ناحية ومدارة لخجله من ناحية أخرى، فاسترسل قائلًا في ضراعة ورجاء:

فليسامحنى الله، لقد كنت أصلي، ولكن منذ حلول الشتاء بدأت أشعر بخمول في جسدي أقعدني عن الصلاة، وخدر في يدي منعني من العمل ولكني سأصلي إن شاء الله بعد فوات الشتاء ودخول الصيف.

ابتسم الشيخ وقال:

لكن يا ولدي..

أكان اتهدم القيف

قبّال دخول الصيف

الشورة كيف

أي إذا مت قبل دخول الصيف فكيف يكون موقفك؟

ثم أردف قائلًا:

يا ولدي..

نعمة الرجال أهل العقول

تبعوا النصوص ما هم غفول

ما هموا بالنوم والاكول

متل الجبال وسط السهول

أي أكرم بالرجال الذين يستعملون عقولهم بمتابعتهم

للنصوص الشرعية ولم تشغلهم الدنيا ولم يكن همهم الشاغل النوم والأكل.

ثم مسك الشيخ يد (البدري) وهذا اسم الشاب وشرع يقول:

يا ايد البدري، قومي بدري، اتوضي بدري، صلّي بدري، أزرعي بدري، حشّي بدري، أحصدي بدري، كدي شوفي كان تنقدري.

فما أن أكمل الشيخ سجعه حتى تنهد البدري بإرتياح من الأعماق وقد عاوده شعور عميق بالطمأنينة والثقة والسعادة.

لقد فاضت نفس البدري منذ ذلك اليوم بحيوية وناشط غشيان أى كسل أو خمول، ولم يعد يكترث لشيء غير حياته التي فاز بها في لحظة من الزمان ويأبى أن يغيب عنها ثانية واحدة مما بقي من أيام دهره، ومن ثم ألقي بنفسه في تيار زاخر من التجارب بإرادة لا تنثني وقوة لا تقهر وقد عمد إلى فلاحة أرضه بنفسه، مستقبلًا حياة جديدة غمرت فؤاده بالطمأنية وملأت نفسه بالثقة.

أصبح يلذ له كثيرًا أن يختلف إلى صخرته في المساء، ليستريح إلى منظر النيل الهادئ وشمس الأصيل الآفلة، وبينما هو جالسٌ ذات يومٍ يقلب الطرف بين الأرض والسماء، ويفكر فيما قاله له الشيخ عندما أخبره بأنه يرغب في الزواج:

ربنا يرزقك ببنت الحلال..يا ولدي..

بنت الحلال ان اتلقت

لى مال كتير ما اتلّفتت

فوق الرجال ما حلّقت

لامن تموت ما اطلّقت

أي إن وجدت المرأة بنت الحلال وهي السهلة الميسورة

التي لا تتلفت للمال الكثير، وهي لا تطوف ولا تدور متبرجة مبتذلة، فمثل هذه هي التي تحسن العشير.

رأى بجانب خياله في الماء خيالًا آخر فتبيّنته فإذا به خيال فتاة تهم بملأ جرتها من النيل، اقترب منها ذعرت ولكنها لم تلتفت وراءها، مدت يدها إلى الماء فملأت جرّتها، ثم نهضت لتحملها، تقدم إليها وحياها بلطف ما تعودته من رجل قط خفضت رأسها حياءً وقد أكسبها الحياء جمالًا ورقة، أعانها على حمل الجرّة، همّت بالذهاب، أوقفها وقد سرى في عروقه شعور غريب وتغيرّت نظراته وقال لها:

لا تذهبي!

فوقفت في مكانها مستغربةً شاعرةً بوجود قوة في صوته تمنعها من الحراك، ولما اختلست من الحياء نظرةً إليه، وهو يتأملها باهتمام، ويبتسم لها بلطف سحري يكاد يبكيها لعذوبته وينظر بمودة وميل إلى حاجبيها المقرونين وعينيها النجلاوين وخديها الأسيلين وعنقها الأملس وشعرها الكثيف الناعم، وهي مطرقة خجلًا لا ترغب في الانصراف ولا تقوى على الكلام، وقد هجم عليها شعور جعلها تدرك لأول مرة أنها أنثى، وأن عاصفة هوجاء تدفعها إلى التشبث بالرجل الواقف إلى جانبها؛ لتجد تحت جناحه الدفء والأمن والنعيم. ما هذا الشعور الجامح الذي اجتاحها، وعبث بها كما تعبث الرياح بأوراق الأشجار؟ وما هذا الطارئ المفاجئ الذي دخل قلبها بلا استئذان فاستبد بكل ما فيه؟ أهذا هو الحب الذي يقولون؟ يا له من سريع الأخذ، باطشًا لا يرحم، وغازيًا لا يبقي على جريح.

في ذلك المساء عاد إلى داره بحال غير التي ذهب بها وهو

الذي كان لا يكترث لشأن الفتيات اللّائي كن يمنينن نفوسهن بأن تفوز إحدهن بالزواج منه رغم أطواره الغريبة، عاد وقد أبدلت تلك الفتاة غفلة شبيبته بيقظة هائلة بلطفها، جارحة بعذوبتها، فتّاكة بحلاوتها، وقد جعلته يذوب حنينًا إلى تلك الساعة الغريبة التي إذ انتبه فيها فجأة فأحس بقلبه قد تحرّاك وأعماقه قد اتسعت وانبسطت ونبطت بانفعالات لذيذة لم يألفها من قبل. في الحال قام بما ينتظر منه، ذهب إلى أهلها في مساء اليوم التالي استقبله والدها في ديوانه، نده عليها، دخلت

عليهما، أبدت ما يسمح به الشرع بإبدائه من الوجه واليدين، اتفق مع أبيها أن يكون الزواج في بحر أسبوع، مضت الاستعدادات بسرعة محمودة، وجاء يوم العرس مُدت سماط الوليمة عليها صحاف ممتلئة بما لذ وطاب من الطعام، جاء الشيخ ملبيًا الدعوة، متنكرًا في ثياب بالية، لم يكترث لأمره أحد بل تجاهله الجميع كأنه لم يكن موجودًا، رجع إلى بيته ولبس أحسن الثياب ثم حضر مرة ثانية، تهافت عليه الحضور وتسابقوا على إكرامه، جلس إلى المائدة وأدخل كم قفطانه قائلًا:

(كل يا كمى قبال فمى).

أقبل البدري على الشيخ، جثا على ركبيته، أخذ يقبل يديه وعينيه تفيض بدموع الاعتذار والفرح والشكر، وهو يقول:

لك العتبى يا شيخنا حتى ترضى..

ابتسم الشيخ وقال:

لا عليك يا ولدي..زواج مبارك إن شاء الله..

مرت الأيام وهو في كل يوم يكتشف من عالم زوجته المحبوبة جديدًا، إنها معتزة بنفسها في غير غرور، مغرمة بالمناقشة في غير جدال، مؤمنة صادقة في غير نفاق، وبقوة انشرح لها صدره، وقد انشد إليها بما وجده فيها من طهر ونقاء، فعاشا سعيدين هانئين، حتى تجلت أمومتها للعين، فنظر إليها وهو يرد في نفسه قول الشيخ:

بنت الحلال وين تتلقي

إلا للسعيد مو شقي

ان جابت ولد يطلع تقي

وان جابت بت تترجي

رحيل مهيب

استطعم الكثير من الفقرا (المشايخ) صحبة الأمراء، فأغدقوا عليهم الأموال، وأقطعوهم الأراضي التي وزعوها على مريديهم الذين شدوهم إليهم بخيوط الكرمات والخوارق التي لا تنقصف، فأصبحوا بين أيديهم كالموتى بين أيادي غاسليهم.

جلس أخ الشيخ مع مجموعة من مريدي المشايخ الإقطاعيين عند ضل الضحى يجترون أحاديث مشايخهم وما وصلوا إليه من حظوة عند الأمير، فاضت به العاطفة، ذهب إلى الشيخ في كوخه، دخل عليه، ألقى عليه التحية، رد عليه الشيخ بأحسن منها، جلس صامتًا وهو ينظر إلى الشيخ وفي عينيه كلام حائر. كسر الشيخ حاجز الصمت، وقال له:

ما بك يا أخي؟!

أتريد أن تقول شيئًا؟

تململ الأخ في مجلسه، وقال:

إني لموقن يقينًا لا شبهة فيه أن الأقدار تعينك وتمهد لك الطريق، وتهيئ لك من الأسباب ما لا يخطر لك على بال، فلماذا لا ننال حظوتك من الأمير كغيرك من الفقرا (المشايخ)؟!

تبسم الشيخ وقال:

يا واقفًا عند أبواب السلاطين

أرفق بنفسك من همٍ وتحزين

تأتي بنفسك في ذل ومسكنة

وكسر نفس وتخفيض وتهوين

من يطلب الخلق في إنجاز مصلحة

أودفع ضر فهذا في المجانين

وكم يحاكي لمسجون يدوم له

وكم من السجن في أيدي المساجين

إن كنت تطلب عزاً لا فناء له

فلا تقف عند أبواب السلاطين

ألا ألزم العلم والتقوى وما نتجت

من الثمار تفز بالخرَّد العين

خلّ الملوك بدنياهم وما جمعوا

وقم بدينك من فرض ومسنون

استغن بالله عن دنيا الملوك كما

استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

مضت الأيام، جرت الشهور، انحدرت السنين، اختفى الكثيرون من رفاق الشيخ خلف جبال المنية. لم تمنعه مشاغل الحياة من أن يسطر عنهم كل جميل، ذاكرًا حسناتهم، وداعيًا الموالى عز وجل أن يغفر زلاتهم، وأن يلحقه بهم في جنات النعيم.
هبط المغيب، هم الشيخ بمغادرة المزرعة قبل حلول الظلام، لفحته نسمة دافئة رطبة، شعر بغزو ثقل ينقض على منكبيه وسائر جسمه، نما الثقل وتصاعد حتى خُيِّل إليه أن قدميه ستغوصان في الأرض. جلس، جمع شتات قوته، تحامل على نفسه، نهض، جد في السير إلى القرية، غمت خياشيمه روائح الزروع الطيبة، مستثيرة ذكريات شتى لم يجِد وقتًا لتملّيها ومعايشتها، انفرد به فضاء السماء والأرض، توقَّف قليلًا، التقط أنفاسه، افترش فروته، صلى المغرب، امتلأ بأنفاس الليل، انسابت إلى قلبه نظرات النجوم المتألقة لتوها، هفت روحه إلى السماء الصافية. دعا ما شاء الله له أن يدعو، نهض وواصله سيره. وصل إلى كوخه، تحامل على نفسه، جلس على فروته، أدى فريضة العشاء، تمدد فوق الفراش،، سرت الحمى في أوصاله، رحل بعيدًا، أدرك نهرًا من الكوثر، جثا على ضفافه، اغترف منه غرفة بيده، شرب منه، انتابه شعور أنه لن يذوق كأس المنون مرة أخرى. استوى واقفًا، طفق يمشي على ضفاف ذلك النهر، مشدوها بما حاوله من مناظر ودّ لو طُويت له الأرضُ طيًّا، فيتعجَّل النظر إلى ما غاب عنها. فما أخذ هذا الخاطر مكانه من نفسه حتى رأى بين يديه فرسًا من الجوهر المتخيَّر مسرّجًا ملجّمًا، فعلا ظهر ذلك الفرس وغمزه غمزة خرج بها خروج الودق من السحاب.
مع أول خيوط صباح اليوم الخامس، اشتعل النشاط في كيانه، تجمعت قوة الحيوية كلها ودقت جدارن قلبه تريد أن تنطلق. لا يمكن أن ينام من تنتفض جوانحه بهذه القوة كلها. شعر أنه يشق طريقًا آخر، ويتطلع إلى أفاق أرحب.
توسطت الشمس كبد السماء، نهض من رقدته، نظر حوله بهدوء وثقة كأنه راجع من غيبة سنين لا بضع ساعات، استوى جالسًا على فروته، توضأ، صلى الظهر، تمدد

على شقه الأيمن مستقبلًا القبلة، اسنغفر، تشهد، قرأ الإخلاص ثلاث مرات، رفع يده كأنه يصافح أحدًا، أسلم روحه إلى بارئها. حملوه إلى المقبرة، مشى في جنازته خلق كثير كأن الأرض انتشقت عنهم، صلوه عليه، دفنوه، تمنى كل منهم أن يُقبض في تلك الساعة، وقد تيقن أن الموت ما هو إلا وجه آخر للحياة.

تمت

أحمد سليمان أبكر

زاهد ورع، حكيم لبق، وافر المعرفة، سريع الخاطر، خفيف الظل مرح لا تفارق الابتسامة وجهه، في ملامحه هدوء، وشموخ، وفي خطاه إتزان، كلامه إيماء، وملاحظاته إشارات. لقد تميز بقوة حجته في محاربة البدع والخرفات التي ظهرت وانتشرت بين العامة والخاصة، بل وطالت حتى مجالس الأمراء والسلاطين. برع بحنكته في إخراج الناس من مآزق الأيام، لقبوه بـ(حلال المشبوك). يحمـــل فـوق كاهله ثمانين عامًا وكأنها هي التي تحمله في رشاقة الخالدين، فرغ من العمل في مزرعته، تربّع تحت سدرته، مودعًا ضحوته، ومستقبلاً قيلولته.

حلال المشبوك